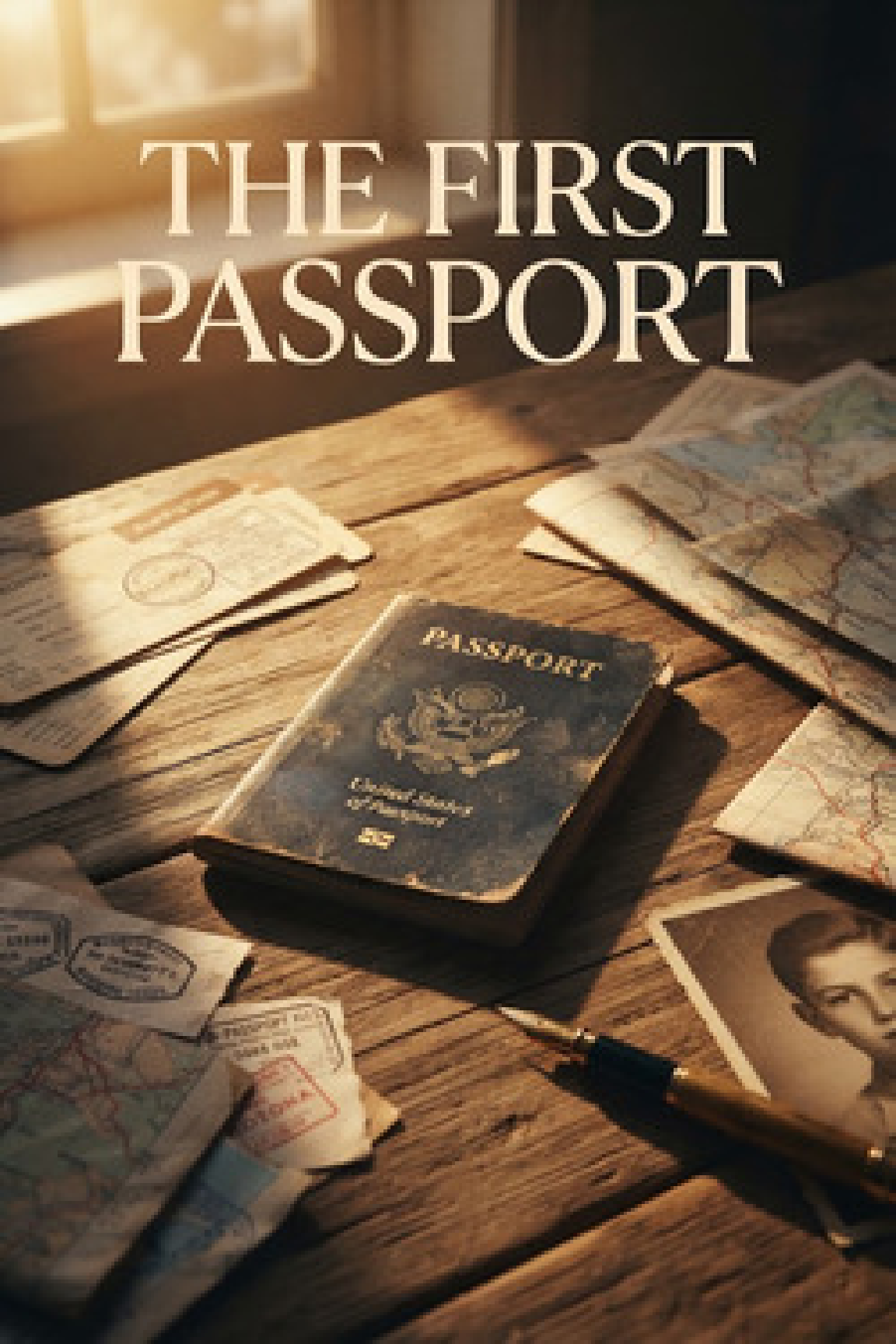

THE FIRST
PASSPORT
PASSPORT

عتبة 4

جواز السفر الأوّل

لسنوات طويلة اعتقدت أنني أبني مسيرة مهنية.

كانت قناعة معقولة.

كلّ صباح كنت أنهض للعمل.

كلّ أسبوع كانت له أهداف.

كلّ شهر كانت له نتائج.

كلّ سنة كانت لها حصيلة.

كلّ شيء بدا يؤكّد فكرة أنّ مركز الحكاية هو العمل.

ثم جاء الزمن.

والزمن، كعادته، تكفّل بوضع كلّ شيء في مكانه.

اليوم، حين أنظر إلى الوراء، لا أتذكّر الأرقام بقدر ما أتذكّر الأشخاص.

لا أتذكّر الإحصاءات بقدر ما أتذكّر المحادثات.

لا أتذكّر الإجراءات بقدر ما أتذكّر القرارات.

إنه اكتشاف مدهش.

نقضي عمرًا نعتقد أنّ القيمة تكمن في الهياكل.

ثم نكتشف أنّ القيمة كانت مخبّأة في البشر الذين عبروا تلك الهياكل.

دخلت عالمًا له قواعد دقيقة.

أهداف واضحة.

معايير عالية.

كان يفرض الانضباط.

يطلب المسؤولية.

لا يفسح مجالًا كبيرًا للطرق المختصرة.

كان وسطًا متطلّبًا.

وكان ذلك من حسن الحظّ.

لأنّ الانضباط شكل من أشكال الاحترام.

قبل كلّ شيء تجاه الذات.

نعيش في عصر يحتفي باستمرار بالموهبة.

أنا تعلّمت أن أحترم شيئًا مختلفًا.

المثابرة.

الموهبة قد تفتح بابًا.

والمثابرة تتيح لك أن تعبر الممرّ.

كثير من الأشخاص اللامعين يختفون.

وكثير من الأشخاص العاديين يبنون في المقابل أعمالًا استثنائية.

الفرق نادرًا ما يكون الذكاء.

غالبًا هو الاستمرارية.

يومًا بعد يوم.

قرارًا بعد قرار.

مسؤولية بعد مسؤولية.

هناك بدأت أفهم شيئًا جوهريًّا.

المؤسسة ليست في الحقيقة مصنوعة من مبانٍ أبدًا.

ليست مصنوعة من شعارات رسومية.

ليست مصنوعة من عبارات دعائية.

إنها مصنوعة من سلوكيات تتكرّر عبر الزمن.

كلّ شركة تملك ثقافة ظاهرة وأخرى خفيّة.

الأولى تظهر في المطويات.

والثانية تبرز حين لا ينظر أحد.

حين تأتي مشكلة.

حين يكون زبون غير راضٍ.

حين تغيب نتيجة.

حين تقرع أزمة الباب.

في تلك اللحظة تكتشف ما يهمّ حقًّا.

لسنوات راقبت رجالًا ونساءً تحت الضغط.

بعضهم كان يتغيّر تمامًا.

وبعضهم كان يكشف أفضل ما فيه.

وفي تلك اللحظات كنت أتعلّم.

لا من النجاحات.

بل من ردود الفعل.

لأنّ الهوية الحقيقية لإنسانٍ ما نادرًا ما تظهر في الأيام السهلة.

تتجلّى حين ينكسر شيء ما.

حين تفشل الخطة.

حين يختفي الأمان.

حين لا يبقى سوى الشخصية.

كثير من أهمّ دروس حياتي لم يأتِ من قاعة درس.

لم يأتِ من كتاب.

جاء من لقاءات يومية.

من زملاء.

من زبائن.

من أشخاص ربما لم يتخيّلوا يومًا أنهم كانوا يعلّمون شيئًا.

الحياة كثيرًا ما تعمل هكذا.

المعلّمون الأهمّ لا يقدّمون أنفسهم كمعلّمين.

هم ببساطة يعيشون أمامنا.

وشيء منهم يبقى.

مع مرور السنوات بدأت أسافر.

بلدان مختلفة.

ثقافات مختلفة.

لغات مختلفة.

في البداية كنت أبحث عن الفوارق.

كان ذلك طبيعيًّا.

كلّ بلد بدا يملك شخصية خاصة به.

إيقاعًا.

منطقًا.

حساسية.

ثم حدث شيء ما.

بدأت ألاحظ أوجه الشبه.

أبٌ قلق على مستقبل أبنائه.

أمٌّ مستعدّة للتضحية بنفسها.

شابّ متلهّف لإثبات قيمته.

عاملٌ يطلب الاحترام.

مسنّ يريد أن يُصغى إليه.

كانت الإحداثيات تتغيّر.

وكان الإنسان يبقى متشابهًا على نحو مدهش.

حينها بدأت أفهم أنّ الشركة كانت أكثر بكثير من مكان عمل.

كانت نافذة.

كانت تتيح لي أن أراقب العالم.

أن أدخل عوالم ما كنت لأعرفها لولاها.

أن أفهم أنّ الجغرافيا تفصل بين البشر أقلّ بكثير ممّا يظنّون.

كلّ رحلة كانت تضيف شيئًا.

كلّ لقاء كان يزحزح حدًّا ذهنيًّا.

كلّ تجربة كانت تهدم حكمًا مسبقًا.

ودون أن أنتبه كنت أتعلّم درسًا أكبر من العمل نفسه.

الإنسان يأتي قبل أيّ نظام.

دائمًا.

الاستراتيجيات تتغيّر.

الأسواق تتغيّر.

التقنيات تتغيّر.

الأجيال تتغيّر.

لكنّ الثقة تبقى.

الاحترام يبقى.

الكلمة المعطاة تبقى.

إنها عملات لا تفقد قيمتها أبدًا.

حين أستعيد تلك الفترة من حياتي، لا أعتبرها مجرّد مسار مهني.

أعتبرها تمرّسًا إنسانيًّا.

مختبرًا.

مدرسةً غير رسمية كان كلّ يوم فيها يضيف تفصيلًا إلى فهم العالم.

لهذا أبتسم اليوم حين يختزل أحدهم مسيرة مهنية في سلسلة من الأدوار.

الأدوار مؤقّتة.

الدروس تبقى.

الأشخاص يبقون.

التحوّلات تبقى.

في النهاية لا أحمل معي هيكلًا تنظيميًّا.

لا أحمل معي منصبًا.

لا أحمل معي لقبًا.

أحمل معي مئات الوجوه.

آلاف المحادثات.

كمًّا لا يُحصى من الدروس تلقّيتها من أناس عاديين.

وفوق كلّ شيء يقينًا واحدًا.

الشركة كانت مهمّة.

مهمّة جدًّا.

كوّنتني.

وضعتني على المحكّ.

فتحت لي طرقًا ما كنت لأتخيّلها أبدًا.

لكنها لم تكن خطّ الوصول.

كانت نقطة الانطلاق.

لأنّ العمل كان يبني كفاءات.

والعالم كان يبني وعيًا.

والحكاية الحقيقية، تلك التي كانت تتشكّل ببطء في داخلي، لم تكن قد بدأت بعد.